المحاضرة الأولى: البحث الميداني الحقلي: المفهوم والممارسة المعرفية

المقدمة: يشكل البحث الميداني عامل مشترك بين العديد من حقول المعرفة الاجتماعية، فهو عماد الحقيقة، وأساس فهم كل أنواع الظواهر والطقوس ومختلف أشكال الممارسات الاجتماعية والثقافية التي يعج بها واقع الكثير من الجماعات الإنسانية على تنوعها، الأمر الذي يجعل مسألة الغوص في خباياه المفاهيمية والمعرفية أمر في غاية الأهمية بالنسبة لكل دارس منتسب لهذا الحقل.

1. مفهوم البحث الميداني: البحث الميداني تسمية تنسب إلى ذلك البحث الأنثروبولوجي أو الاجتماعي أو النفسي الذي يجعل من الميدان أو الحقل بمثابة مخبر لأبحاثه وتجاربه. ويعرف البحث الميداني بشكل عام بأنه: الدراسة المنظمة لحوادث وأنواع نشاط عادية كما تحدث في الأوضاع الحياتية الفعلية.

كما يعرف كذلك، بأنه استقصاء طبيعي يحدث في "الميدان"، أي في سياق طبيعي غير مصطنع بهدف إجراء الدراسة.

وهناك من نظر إليه بأنه: دراسة شبه طولية، لأنه يستغرق وقتا طويلا لانجازه. كما أنه بحث مرن لأن تصميمه يسمح بإجراء تغييرات في أثناء إجراء البحث.

أما في حقل الأنثروبولوجيا فيقصد بها: **البحوث التي يقوم بها الأنثروبولوجي أو الإثنولوجي في منطقة إثنوغرافية أو في مجتمع محلي.**

يشير الأنثروبولوجيون بكلمة الميدان إلى حيث يتوجهون لمراقبة حياة مجتمع وجمع معلومات عنها يقدمها المعنيون أنفسهم بصورة مباشرة. فالعمل الإثنوغرافي بامتياز هو العمل الميداني، والحالة الإثنوغرافية هي الحالة الميدانية.

2. نشأة وتطور البحث الميداني في حقل الدراسات الأنثروبولوجية: عرف رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية في القرن التاسع عشر (19) ميلادي، باسم علماء "القواعد الوثيرة" وذلك لعدم اعتمادهم على أنفسهم في جمع المعلومات عن المجتمعات التي يدرسونها، أي أنهم لم يستخدموا منهج الدراسة الميدانية.

وفي نهاية القرن 19، وبعدما استكمل الأنثروبولوجيون عناصر الأنثروبولوجيا الاجتماعية بتصنيف المجتمعات على أساس أبنيتها الاجتماعية بدلا من حضارتها، وشمل هذا الاستكمال تحديد التوجه الرئيسي لها وهو الدراسة الحقلية، مما جعل **ايفانز بريتشارد** يصنفها كرحلة تحول في تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

فبعدما كان البحث الأنثروبولوجي يعتمد على التنظير كما هو الحال عند " **مورغان**" و"**فرانس بواس**" أصبح إمبريقيا تجريبيا فيما بعد، حيث فرضت هذه الطريقة نفسها على المختصين والمحترفين في مجال الأنثروبولوجيا الذين طبقوها في مختلف أبحاثهم وبالخصوص على المجتمعات البدائية، محدثين بذلك القطيعة بين مرحلة التنظير التي كانت تعتمد على مجرد انتقاء المعلومات من دون اختبارها والتأكد من صحتها أو كذبها، ومرحلة التجريب والاستقراء، وهي مرحلة أصبح الباحث فيها رجل ميدان وكأنه جزء من موضوع الدراسة وعنصر من عناصر أو أفراد تلك القبائل والمجتمعات يعايشهم.

لقد بدأ البحث الميداني مع " ***مالينوفسكي***" من خلال بحثه الميداني الذي دام لسنوات طويلة من الملاحظة والمشاركة عن طريق المعايشة. وهكذا بفضل هذا البحث تخلصت الأنثروبولوجيا من التأملات الفلسفية والحفرية أي التاريخ الكرونولوجي كما فعل **فريزر وليفي برول ومارسيل موس** الفرنسيين.

فالميدان هو "مختبر" الأنثروبولوجي: فالمهمة الأولى لهذا الأخير هي "العمل الميداني"، إلى حد أن الميدان الأول هو " المجال الاختباري" الذي يحدد مصير مهمة. هكذا يتخذ الاختبار الميداني الأول طابعا تكريسيا بعض الشيء، على الأقل قبل الانطلاق، أو لدى العودة، أما البقية، أي العمل هو نفسه، فإنه لم يفتأ يشكل موضوع تساؤلات الإثنولوجيين، أكانت هذه الأخيرة تختص بمرحلة حدوثه أو غائيته.

إن أقل ما يمكن قوله هو أن الميدان هو " المكان " حيث يضع الإثنولوجي قيد الاختبار نوعا من الصراع الوجودي بين الضمير الصالح (ضمير العالم) والضمير الشيء (ضمير الشاهد غير الأمين). إلا إن توسع الطريقة الأنثروبولوجية اليوم إلى المجتمعات الصناعية (المعقدة)، وشبه غياب الشعوب التي تعيش بعيدا عن التقدم قد أفرغا كلمة " الميدان " من جزء كبير من قيمتها الإيحائية، مع أن هذا الأمر لم يسيئ إلى الملائمة المنهجية لاستعمالها.

واليوم في الأنثروبولوجيا المعاصرة، لم تعد هذه المنطقة الإثنوجرافية مقصورة بالضرورة على المجتمع المحلي التقليدي القبلي أو القروي، بل يمكن أن تغطي دراسات للمجتمعات الحضرية، أو الصناعية أو غيرها التي يختارها الأنثروبولوجي لدراستها دراسة مركزة.

3. أهداف وأهمية البحث الميداني: يهدف البحث الميداني إلى استطلاع أوضاع حياتية فعلية وأنماط سلوكية وأسباب التفاعل الاجتماعي، وبصورة أخص إلى مشاهدة الحياة بعين أولئك الذين يعيشون في الميدان ومنظورهم.

وتكمن أهمية هذا الإجراء، في جملة النقاط الآتية:

- يوفر لنا نظرة كلية عن موضوع الدراسة
- استخدام السياق الثقافي كمصدر للتفسير
- درجة عالية من المرونة
- درجة عالية من الصدق الخارجي
- القدرة على أجراء دراسة طولية: كدراسة قضايا عبر الزمن.

4. أنواع البحث الميداني: ينقسم البحث الميداني إلى عدة أصناف، أبرزها:

- البحث الميداني الخصوصي: يركز هذا النوع من البحوث على القضايا والأوضاع الاجتماعية بهدف فهم بنياتها وعملياتها ومخرجاتها كما تحدث في سلوك أفراد الدراسة، دون الإشارة إلى سياقات عامة كالثقافة مثلا. ويعتبر الباحث سلوك الأفراد استجابتهم لبياتهم وليس تعبيرا ثقافيا. ومثال على هذا النوع من البحث الميداني الخصوصي عندما يلتحق الباحث بمدرسة ابتدائية كمعلم مساعد ليدرس كيف يتعامل المعلمون والمعلمات مع قضايا **الجندر** اليومية في صفوفهم. والسؤال هنا عما إذا كانت المعلمات أكثر أو أقل تحيزا جندريا من المعلمين الذكور.

- البحث الميداني الكلي: يركز هذا البحث على الثقافات باعتبارها كيانات كاملة ويدرس بنية الثقافة وخصائصها ويقارن ثقافة بأخرى. وقد يركز على ثقافات بدائية مازالت قائمة وموجودة في المجتمعات الحديثة بشكل أو بأخر. وقد يدرس هذا البحث أيضا الثقافات المعاصرة والثقافات الفرعية ويقارن بعضها ببعض. يهتم البحث الميداني الكلي بالثقافات ككيانات، وقد لا ينظر إلى أجزاء.

- النماذج المختلطة: عبر السنوات الثلاثين الماضية، حدثت محاولات ناجحة لدمج هذين النموذجين للبحث معا، وذلك بتوسيع إطار البحث الميداني الخصوصي ليشتمل على بعض عناصر المنهج الكلي من حيث النظرية والتصميم. وعلى الرغم من أن التركيز في معظم الحالات يبقى نفسه (جوانب من الحياة الاجتماعية) إلا أن التفسيرات تتم في سياق ثقافي.

5.تصميم البحث الميداني: يختلف تصميم الدراسات الميدانية باختلاف النموذج النظري الذي يرتكز عليه البحث. ففي النموذج الكمي يكون التصميم جامدا وصارما بينما يكون منفتحا ومرنا في النموذج النوعي. وتتلخص خطوات البحث الميداني الأساسية فيما يلي:

- الخطوة الأولى: الموضوع والمنهجية: في هذه المرحلة، يحدد الباحث موضوع دراسته والمنهجية التي سيتبعها في بحثه.
- الخطوة الثانية: تحديد موضوع البحث منهجيا: عندما يستخدم الباحث الطريقة الكمية يجب أن يكون الموضوع معرفا بوضوح ومختزلا ومحددا إجرائيا إلى حد معين، أما في البحث النوعي فلا ضرورة لهذا التحديد والدقة، حيث يكون الموضوع عاما ومرنا.

6.صعوبات البحث الميداني: تكتنف الدراسات الميدانية في حقول الأنثروبولوجيا العديد من الصعوبات التي يواجهها الباحثون في الميدان ويفاجئون بها في بداية عملهم، أيا كان المكان الذي يجرون فيه بحوثهم.

- الصدمة الثقافية: قد يصاب الباحث الإثنوجرافي بإحساس فقدان الاتجاه لدى وصوله إلى المكان الذي سيجري فيه عمله الميداني، وذلك بسبب اختلاف أنساق القيم وأنماط السلوك لدى الناس الذين سيدرسهم.

فقد يتكون لدى الباحث بوعي أو بلا وعي نظرة رومانسية إلى البدائيين، تمثل هي نفسها أحيانا عنصرا جوهريا أو مهما في دفع الباحث إلى ممارسة هذه المهنة، ولكنها تواجه بصدمة قاسية من واقع بلد العالم الثالث الذي اختار منه مجتمع بحثه الميداني. ويكون رد الفعل من جانب كثير من الأنثروبولوجيين هو رفض المجتمع القومي أو المجتمع المسيطر.

- مشكلة تحديد الدور داخل مجتمع البحث وإقامة علاقات طيبة مع الإخباريين: ففي بعض الأحيان قد يجد الباحثون أنه من الصعب أن يشرحوا لأفراد المجتمع سبب وجودهم، أو طبيعة البحوث التي يقومون بإجرائها، ووجد نفر منهم أنه من الأيسر اختراع هوية مزيفة يمكن أن يتقبلها المجتمع المحلي بسهولة أكبر. ولكن الكثيرين يعترضون على المضمون الأخلاقي لهذه الممارسة، لذلك يتعين على الباحث الميداني الذي يواجه هذه المشكلة أن يعمل –بدلا من ذلك– من أجل الحصول على مكانته في المجتمع المحلي بشكل عملي، بأن يصرح بأهدافه البحثية، ولكن في مقابل ذلك أن يعرض في نفس الوقت للقيام بخدمة مفيدة أو مهمة إلى حد ما في مقابل تعاون أهل المنطقة معه في إجراء بحثه.

في الكثير من بلاد العالم الثالث، يتفق المثقفون المحليون وممثلو السكان الأصليين وغيرهم من الجماعات المقهورة أو الخاضعة في النظر إلى الأنثروبولوجيا الغربية عموما على أنها إما شكل من أشكال التجسس، أو أنها مجرد وصف للعناصر الفولكلورية والعادات الغريبة بما يدعم ويكرس صورة مزيفة تماما لواقعهم القومي وللمشكلات الحقيقية لجماعات الأقلية التي يمثلونها.

تعارض الدور الأكاديمي مع التضامن الأخلاقي مع مجتمعات الدراسة: يشعر الكثير من المشتغلين في حقل الدراسات الأنثروبولوجية بقلق بالغ ناجم عن تعارض واجبهم العلمي مع التزامهم الأخلاقي بالدفاع عن مصالح القطاعات المقهورة والمحرومة في المجتمعات التي يدرسونها.

يعترض الكثير من السكان المحليين الذين يرون الباحث الأنثروبولوجي بمظهره الثري بالقياس إلى المستويات المحلية، وحريته في الاضطلاع بالبحوث التي يختارها، على استغلاله للمجتمع المحلي في تحسين ظروف عمله في وطنه، واضعا أهداف بحثه الفردي قبل أي التزام بخدمة تطلعات السكان المحليين واحتياجاتهم الأساسية. لذا فإنه يتعين على الباحث أن لا يعتقد أبدا أن من حقه إجراء البحوث، وعليه أن يستعد لتقديم شيء في مقابل ذلك للمجتمع المحلي.

الاتجاهات التي يتعين عليهم أن يتخذوها تجاه صور الانشقاق والتقسيمات داخل مجتمع الدراسة: حيث يجب حينها على الأنثروبولوجي أن يضحي إما باتساع اتصالاته ومجال تغطية موضوعه ويقتصر على علاقات مكثفة مع واحد أو اثنين من الإخباريين أو الأسر، أو العكس بالعكس. إنه من المستحيل أن يكون الباحث كل شيء لكل الناس في الميدان، وخصوصا في المجتمعات الصغيرة التي تتميز بعلاقات التحالف بين الزمر المنشقة، حيث سيضطر الناس الباحث اضطرارا إلى أن " ينحاز" إلى جانب دون الأخر، حتى ولو لم يكن يريد هذا. والبديل الوحيد لذلك أن يظل الباحث على هامش المجتمع عاجزا عن إنجاز بحثه بشكل ملائم. إن إدعاء هوية أو الاضطلاع بدور معين يعني أن ينفصل الباحث عن الهويات وعن الأدوار الأخرى. ومع أن الباحث يستطيع أن يستثمر غموض إحدى المكانات أو هامشيتها إلى حد ما لكي يستطيع مجالات اجتماعية متعددة، إلا أنه لن يستطيع الحفاظ على حياده على الدوام، أو أنه سوف يشعر في بعض المواقف بأن حياده ليس موقفا ملائما من الناحية الأخلاقية.

الشك والريبة والرفض من قبل المجتمعات المحلية: المراقبة الأولى الممارسة على الأنثروبولوجي، والنظرات التي تصيبه تأتي كلها معبرة عن جو الارتياب والرفض، إلى جانب الكثير من السخرية أحيانا. حيث يجد الباحث الإثنولوجي نفسه عرضة لأفكار من نوع: " أنت تقوم بعمل يزعجنا". إلى جانب طريقة

مراقبة الدخيل المطبقة عليه، من خلال ترتيب مكان جيد له، يحرصون على أن يبقى فيه ولا يتحرك. إن هذه الحالة ليست بعيدة عن الوضع الذي يفرض على الأنثروبولوجيين اليوم من قبل ممثلي مجتمعات اعتادت زيارة الباحثين في أمريكا الشمالية، حيث تفرض مهمة محددة على الإثنولوجي الذي لا يستقبل إلا إذا تعهد بإتمامها حصريا دون سواها.

المراجع المعتمدة في المحاضرة:

1) مصطفى تيلوين: **مدخل عام في الأنثروبولوجيا**، دار الفارابي.

2) بيار بونت وآخرون: **معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا**، تر. د. مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2011.

3) شارلوت سيمور شميث: **موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية**، تر. علياء شكري وآخرون.

4) سوتيريوس سارانتاكوس: **البحث الاجتماعي**، تر. شحدة فارع، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

5) سيكوك قويدر & قريصات الزهرة: "إشكالية المنهج في البحوث الأنثروبولوجية"، في مجلة: **الحوار الثقافي**، جامعة مستغانم، 2014.